القصص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم عليه السّلام

أ. أناهيد السميري

اللّقاء الرّابع عشر

مدونة علم ينتفع به

www.tafaregdroos.blogspot.com

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكنّ سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصّالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

مقدّمة:

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

في سياق الخبر عن إبراهيم عليه السّلام، وفضله ومكانته، أتى في سورة الأنعام كما مرّ معنا في اللّقاءين الماضيين، أتى الخبر عن **مُحاجّته لقومه**، وأخبر سبحانه وتعالى {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ} فكانت هذه المُحاجّة من عطايا الله عزّ وجلّ، وتبيّن لنا كيف أنّ الله أراد بيان ما لإبراهيم عليه السّلام من مكانة، ففي هذا السّياق قال الله عزّ وجلّ لنبيّه {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}[٢] هؤلاء الّذين على رأسهم إبراهيم عليه السّلام حاجّوا من أجل **بيان التّوحيد، وإذهاب الشّرك**، فكانت هذه المُحاجّة المشهورة، الّتي هي على طريقة التّنزّل مع الخصم.

فإنّ إبراهيم عليه السّلام قد أظهر لقومه أنّه يُوافقهم في هذه المسألة، يعني: كأنّه يقول لهم: سنفترض أنّ القمر هو ربّي، سنفترض أنّ الشّمس هي ربّي، سنفترض أنّ الكوكب هو ربّي، ثمّ يتبيّن من خلال المُحاجّة بُطلان أن تكون هذه تستحقّ العبادة، وسيتبيّن لنا إن شاء الله من الآيات كيف حَاجّهم وكيف تبيّن الحقّ.

نسمع الآيات أوّلا ثمّ نقوم بمناقشتها:

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ

[١] [الأنعام: ٨٣]

[٢] [الأنعام: ٩٠]

آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)}[٣]

نبتدأ الآن في مناقشة هذه الحجّة الّتي أتاها الله عزّ وجلّ إبراهيم على قومه؛ لا ننسى أنّ بداية السّياق {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ} يعني أذكر هذه الحال الّتي قال فيها إبراهيم لأبيه آزر {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} فكان أوّل السّياق الكلام عن الأصنام وفي كونها اتّخذت آلة، وفي هذه الجملة نفسها إبطال لاتّخاذ الأصنام آلهة، فنحن عندنا سؤالين الآن:

١. **السّؤال الأوّل: هذه الأصنام الآن الّتي اتّخذت آلهة ما علاقتها بكونهم يعبدون الكواكب؟**

وقد أجبنا عن هذا السّؤال فقلنا: ـ كما مرّ معنا ـ أنّ قوم إبراهيم كانوا يعتقدون أنّ هذه الكواكب هي الّتي تدبّرهم، فيجعلون لها رموزًا في الأرض إذَا غابت، فكانت الأصنام رمزًا لكلّ إلهٍ من الكواكب، فيضعون الصّنم الكبير يمثّل الشّمس، والّذي يصغره يمثّل القمر، والّذي أصغر يمثّل كوكب الزّهرة، وهكذا فبداية بُطلان ما يعبد قوم إبراهيم عليه السّلام كان بمناقشة مسألة الأصنام. فهذه كانت إجابة السؤال الأول حول ما علاقة الأصنام بالكواكب؟

٢. **السّؤال الثّاني: أين إبطال اتّخاذ الأصنام آلهة؟**

لمّا أنكر إبراهيم عليه السّلام على أبيه اتّخاذ الأصنام آلهة، أُبطل هذا الشأن ـ شأن اتّخاذ الأصنام آلهة ـ بطريقتين:

- **الطّريقة الأولى: الإنكار على طريقة أبيه وقومه في عبادة الأصنام:**

في نفس جملة إبراهيم عليه السّلام لمّا قال له: {أَصْنَامًا} تصنعها بيدك! ضعيفة! لا تملك! لا تتكلم! لا تنفع! لا تضرّ! تحوّلها بعد ذلك إلى معبود وإله! تطلب منه! وتخاف منه!

- **الطّريقة الثّانية: الإنكار عليه أصل المسألة:**

ثمّ لماذا أصنامًا وآلهة؟ ألا يكفي واحد؟

ففي جملته الّتي خاطب فيها أباه كان أوّلًا: الإنكار على هذه الطّريقة، ثمّ أنكر عليه أصل المسألة، وهي أنّ هذه الأصنام الّتي في الأرض عبارة عن رموز للكواكب في السّماء، ونلاحظ أنّه بعد أن استقبح عبادة الأصنام قال لأبيه: {إِنِّي أَرَاكَ

[٣] [الأنعام: ٧٤ ـ ٨٣]

وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} قال الله عزّ وجلّ : **{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}** فازداد بذلك يقينًا، وتأكّد من قبح ما هم عليه من التّعلّق بغير الله، وجعل ما سخّره الله لنفعهم شُركاء مع الله.

والله عزّ جلّ قد أرى إبراهيم **{مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}** والمعنى _ كما مرّ معنا _ أنّه أراه ببصيرته ما اشتملت عليه السّماوات والأرض من الأدلّة القاطعة، الدّالة على استحقاق الله وحده للتّوحيد، يعني: إذَا تأمّل الإنسان في **{مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}** وصل لليقين بأنّ هذه المفعولات لفاعلٍ عظيمٍ، له الكمال، والجلال، والعظمة؛ ولابدّ أنّ **الأفعال الكاملة تدلّ على فاعل كاملٍ.**

وهذا من أصل فطرتنا كما هو معلوم أنّ فطرتنا لا تقبل أبدًا أفعالاً ليس لها فاعلٌ، **وفطرتنا تُلزمنا بوصف الفاعل بما يظهر في أفعاله:**

- ✓ فكما ترى الجبال عظيمة، فأكيد أنّ فاعلها عظيم.
- ✓ وترى ملكوتًا مسخّرا، فأكيد أنّ صاحبه عزيز، قاهر، لا يخرج شيء عن أمره.

وهكذا فالله عزّ جلّ أرى إبراهيم عليه السّلام **{مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}** فرأى ببصيرته الأدلّة تامّة الوضوح على كمال الله، وعلى عظمة الله، وهذا بالضّبط الّذي نفهمه من قصّة أصحاب الكهف **{إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** يعني: مالكنا، ومدبّرنا، هو من يدبّر السّماوات والأرض وفي تدبيرنا ما يدلّ على عظمته

فكانت هذه الأدلّة القاطعة والبراهين السّاطعة، كانت سبب اليقين لإبراهم، وهذا كما اتّفقنا وكما نكرّر، وكما يمرّ معنا دائمًا ونراه جميعًا في كتاب الله، أنّه كلّما زادت الأدلّة، وزدت تفكيرًا في تفاصيلها، وأشغلت نفسك بالأدلّة الدّالّة على عظمة الله، وكلّما قرأت في ذلك أكثر، ونظرت أكثر، وتعلّمت أكثر، كلّما حصل لك اليقين، وحصلت العبوديّة أكثر لربّ العالمين؛ فمن تأمّل فيما يحصل حوله من إيصال الأرزاق لأهلها بألطف ما يكون من تدبير، وبألطف ما يكون من طريق، يجعل الإنسان:

- ✓ يزداد يقينًا أنّ ربّنا رزّاق.
- ✓ ويزداد يقينًا أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي يُسأَل الأرزاق.
- ✓ ويزداد يقينًا أنّ الله هو الّذي يبارك الأرزاق.

---

[٤] [الكهف: ١٤]

- ✓ ويزداد يقينًا أنّ الله عزّ وجلّ هو الذّي يعوّض العباد.
- ✓ ويزداد يقينًا في المَلَكِ الّذي يُنادي كلّ يوم: ((اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا))

وهكذا كلّما تأمّلنا في هذه التّدابير وهذا الملكوت العظيم ازددنا إيمانًا؛ وقد كانت هذه الصّفة لإبراهيم عليه السّلام، ونبيّنا الكريم كان يتحنّث، فيترك قومه ويخرج بالأيّام الطّويلة إلى غار حراء، ويكون فيه عابدًا، متأمّلًا، يعني: هنا عبادة التّأمّل قبل أن تنزل الشّرائع فكان على ملّة أبيه إبراهيم.

يصف الله عزّ وجلّ لنا هذا الموقف بين إبراهيم عليه السّلام وبين قومه {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا} جنّ، بمعنى: أظلم اللّيل {رَأَىٰ كَوْكَبًا} من الكواكب المُضيئة، وقد قال بعض أهل التّفسير: أنّه الزّهرة، فأيّا كان، فهو الآن أراد ابتداء المحاجّة معهم {قَالَ هَٰذَا رَبِّي} وهذا كما اتّفقنا على وجه التّنزّل مع الخصم، وكأنّه يقول كما يقول الشّيخ السّعدي: (هذا ربي، فهلمّ ننظر هل يستحقّ الرّبوبيّة، وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟) لأنّه **لا يصلح التّأليه إلاّ بدليل**، فيريد منهم أن يقيموا دليلًا على أنّ هذا الكوكب يستحقّ العبادة، فقال لهم: إذا كان ربًّا يصلح أن يُعبد، {هَٰذَا رَبِّي} يعني: خالقي ومدبّري، فإذًا الّذي يترتّب على ذلك أنّه يستحقّ العبادة، قال هذا الكلام على سبيل ماذا؟ على سبيل الفرد، فكأنّه يقول: أنتم تقولون هذا؟ دعونا نرى كلامكم صحيح أم لا؟ طبعًا هو يريد بهذا أن يصل إلى نقض اعتقادهم، فابتدأ بإظهار الموافقة، ثمّ أظهر الدّليل على أنّه لا يصلح لذلك، متى؟ {فَلَمَّا أَفَلَ} والأُفول بمعنى: الغياب، يعني لمّا غاب وهذه الكلمة تُقال خاصّة للكواكب النّيّرات يُقال: أفل النّجم، أفلت الشّمس {فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} وهذه مسألة فطريّة تامّة الوضوح، لأنّ الإنسان كما أنّ عنده مسلّمات عقليّة، فله أيضًا مستحسنات، ومستقبحات، يعني: نحن في نفوسنا منذ الطّفولة ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) هناك أمور مستحسنة، وهناك أمور مستقبحة؛ من الأمور المُستقبحة[٧] هذا الّذي سيناقشه الآن إبراهيم عليه السّلام {قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} يعني: كيف يغيب إلهي عنّي؟ فالأفول مغيبٌ وابتعادٌ، والإله شأنه أن يكون دائم المراقبة، ودائم الحُضور من أجل أن يُدبّر عباده، فلمّا يأفل، معناها: **سيصبح محجوبًا عن الاطّلاع على النّاس**. فكيف يكون إلهي الّذي أحتاجه في كلّ وقت وحين، يُدبّرني، ويُعطيني، ويدفع عنّي الشّر، كيف يغيب؟ والنّفس من أكثر المسائل الّتي تستقبحها أن تكون متعلّقًا بشيء ثمّ يغيب عنك، والبُعد والفِراق، فهذا قد قيل فيه ما قيل من شعر، ومن كلام وحِكم، فلا تستطيع النّفس أن تتعلّق بآفل! ولنضرب بمثال من حياتنا لنتصوّر أنّ هذه المسألة فطريّة متّفق عليها:

---

[٥] صحيح البخاري _ كتاب الزّكاة _ باب قول الله تعالى: {فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فسنيسره للعسرى} [الليل: ٦] _ حديث رقم ١٣٨٥

[٦] تيسير الكريم الرّحمن _ عبد الرّحمن السّعدي _ تفسير الآية ٧٦ سورة الأنعام.

[٧] صحيح مسلم _ كتاب الْقَدَرِ _ بَابُ مَعْنَى كُلِّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَحُكْمِ مَوْتِ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ _ حديث رقم ٤٩٣٣

الآن لو كان لك صديقة حميمة شاركتها الحياة، والأسرار، والعزم، إلخ. ثمّ تتفاجئين بغيابها، أوّلا: هذا الغياب بالنّسبة لك يُعتبر صدمة، لأنّ الصّاحب من المعلوم أنّه ليس بصاحب إلاّ مع مُلازمته لصاحبه، فلمّا يغيب ستكون مُفاجأة،

فإذَا ما غابت ثمّ عادت بعد زمن، هل الثّقة الّتي كانت في السّابق ستعود مثلما كانت؟ من المؤكّد أنّ الجواب: لا، لأنّ هذا الغياب إلاّ يغيب معه جزء من مشاعرنا، ومن محبّتنا، ومن ثقتنا، ويكفي أن نقول لأنفسنا: إنّني لا أقدر أن أقول لها كلّ شيء، أو أطلب منها مساعدة في كلّ شيء، لأنّها يمكن أن تغيب فجأة؟ فلو أعادت عليك الأمر وبقيت فترة طويلة معك ثمّ عادت فغابت! يعني: أظنّ أنّ النّفس هنا تفقد تمامًا الثّقة، فقد تبقى الصّحبة والكلام الطّيّب، لكن الثّقة في أن أشاركك وتكون معي، فكلّ النّفوس لا تحبّ الآفلين.

لا تحبّ الآفلين من الأصحاب، ومن الخلق الّذين لابدّ أن تأتي لحظة وتحتاج فيها أن تكون معهم، فكيف تقبل أن يكون إلهها الّذي تعبده، والّتي هي بحاجة إليه في كلّ وقت، يغيب عنها؟

ففي هذه الجملة وجهان للحقيقة:

١. **الوجه الأوّل:** كيف يكون ربّي؟ الّذي يعطيني؟ ويسقيني؟ وَيُؤْوِينِي؟ وينصرني؟ وأهمّ شيء يدبّرني؟ لأنّها هي الكلمة الّتي تحمل كلّ هذه المعاني التّفصيليّة، كيف يغيب عنّي؟ فمن يدبّرني إذَا ما غاب عنّي؟ فمن هذا الوجه ستنتفي الرّبوبيّة، وإذا انتفت الرّبوبية انتفت الألوهيّة مباشرة، فالّذي ليس بربٍّ لا يصلح أن يكون إلها، فلماذا أعبده؟ ولماذا أطلبه؟ فلأيّ سبب أعبده طالما ليس له شأن لا في تدبيري؟ ولا في تسخير الأمور لي؟

هذا وجه، نأتي للوجه الآخر:

٢. **الوجه الثّاني:** الألوهيّة الّتي هي المحبّة، والتّعظيم، والتّعلّق، الّتي تستوجب الدّعاء، والسّؤال، والرّجاء، والعمل لإرضاء الإله، فما تتحمّل الأُفول!

فأتى من جهة أنّ **الأفول ضدّ دوام التّدبير**، و**الأفول ضدّ دوام المُراقبة على العباد**، ولمّا تسمع عن صفات الله، تسمع أنّه: {الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ} وتسمع عنه سبحانه وتعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ} تسمع: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} فلا أُفُول أبدًا ولا غياب![٩]

[٨] [البقرة: ٢٥٥]

[٩] [الحديد: ٤]

فإذًا وجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الألوهيّة لأنّ الأفول مَغيب وابتعاد، وهذا لا يمكن أن يكون شأن الرّبّ الإله، فالرّبّ الإله لابدّ أن يكون قائمًا على معبوديه، يدبّر شؤونهم، ويسمع نداءهم، ويكون معهم.

كيف يغيب فتأتي الحاجات في وقت غيابه فلا يغني عن عبيده شيئًا؟ ماذا يفعلون عندما يغيب؟ لو نزلت عليهم من المصائب والأقدار وقت غيابه ماذا يفعلون؟ لا يستحقّ أن يُتّخذ إله من يغيب لأنّه لا يُغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مَغِيبِهِ؟

ثمّ فلتفكّر قليلًا هذا الّذي يغيب من يُغيّبه؟ من الّذي يأمره فيغيب؟ فلابدّ أن يكون مُسخّرًا، وهناك من يُسخّره، فهو مفعول فيه وليس فاعلاً.

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا} معناه: _ والله أعلم _ أنّه كان في ليلة واحدة في حال يكون فيها بزوغ القمر بعد اختفاء نور الكوكب، **{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا}** يعني: طلع القمر فلمّا رآه بازغًا والبازغ هو الشّارق في ابتداء شروقه، فالبزوغ هو ابتداء الشّروق كما تبيّن لنا، فلعلّه اختار لمحاجّة قومه الوقت الّذي يغرب فيه الكوكب ويطلع القمر بالقرب منه، ثمّ أعقب ذلك بالشّمس كما يتبيّن.

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا} وهو بالنّسبة للكوكب سيكون أكثر نورًا، قال هذا ربّي على نفس المعنى الأوّل تنزّلًا مع الخصوم، **{فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}** فهنا أمر جديد يريد أن يبيّنه لهم وجعل السّبب الأفول، يعني: كأنّه يريد أن يقول لهم: هذا أيضًا مشترك مع من قبله في كونه يأفل، فإذًا يشترك مع من قبله في عدم استحقاقه للعبادة.

إذَا كانت هذه صفته، وهذه صفة كلّ الكواكب، فماذا أفعل لكي أهتدي لمن يستحقّ العبادة وكأنّه يريد أن يعلّمهم الطريقة المثلى الّتي بها يصلون إلى الحقّ، **فمعرفة الرّبّ الحقّ، إنّما تبدأ بصدق إرادة معرفة الحقّ.**

ومهّد لهم ذلك فكأنّه يقول: أنتم تقرّون أنّ لنا ربًّا وتسلّمون بذلك، فلا يمكن أن نكون مَوْجُودين بدون مُوجِدٍ، وكما مرّ معنا فهم في أصل عقيدتهم يعتقدون أنّ ربّا واحد خلق هذه الكواكب الّتي هم يعبدونها، ثمّ جعلها تنوب عنه في تدبير الخلق، ومن ثمّ يعبدونها إذا احتاجوا إلى شيء، فإذًا معنى ذلك **أنّهم سيعبدونها طول الوقت!** وهي ستقوم بعبادة الله! يعني: وكيلة عنهم! إلى أن غَلَوْا فرأوا أنّها هي المُوجِدَة! فهم في النّهاية إلاّ يعود الأمر أنّهم يعتقدون بربوبيّة ربٍّ واحدٍ، لكنّهم مع كثرة التّعامل الشّركي نسوا الرّبّ الواحد! وتاهوا مع الشّركاء الّذين جعلوهم شركاء لله في العبادة!

فهو الآن ينبّههم، ويهيّئ نفوسهم، فيقول: {لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي} فكأنّه يريد أن يقول لهم: إن أردتم أن تعرفوا الحقّ فاعرفوها من **عبادة الاستهداء**؛ وهي عبادة عظيمة، الحمد لله شُرعت للمسلمين الّذي هداهم ربّهم للتّوحيد، شُرع لهم في كلّ ركعة من صلاتهم أن يعبدون الله بهذه العبادة العظيمة، وهي عبادة طلب الهداية الّتي هي أعظم مقصود للدّاعين، فإنّ أعظم ما يطلب النّاس من ربّ العالمين: أن يهديهم؛ فانظروا كيف أنّ ملّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على ملّة إبراهيم الحنيف.

علّم قومه أنّه لا طريقة للوصول للحقّ إلاّ بطلب الهداية، يعني هناك استعمل معهم الفطرة السّويّة وقال لهم: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} وبقيت هذه الفطرة معه، أنّه لا يحبّ الآفلين؛ فإذًا ماذا نفعل ما دامت فطرتنا لا تقبل؟ كيف أصل؟ فأنت متأكّد أنّ ربّنا موجود، وأنّك لا يمكن أن تكون وأنت بهذه الحالة من كمال الخلقة، لا يمكن أن تكون مثلما يقولون عنك خليفة للقردة! أو متطوّرا عنها! أو شيئًا من غبار الكون! فإذًا ماذا تفعل؟:

- ✓ من خلقك؟
- ✓ من أوجدك؟
- ✓ من أمدّك ومازال يمدّك؟
- ✓ من أعدّك وأعدّ لك؟
- ✓ اسأله أن يهديك.

قال: {لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي} فهنا هيّأ نفوس قومه أنّ له ربًّا غير هذه الكواكب، وعرّض لهم أنّهم هم ظالمون {لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} قبل أن يُصرّح لهم بالبراءة، فهو يريد أن يُدخل في نفوسهم الشّكّ.

لا توجد نفس سويّة تقبل أنّ إلهها الّذي تعبده يغيب ويتركها، فهو يريد أن يحاجّهم، **ويُدخل عليهم الشّكّ فيما قد أصبح مثل الجبل من العقائد الباطلة نتيجة التّقليد، ونتيجة منع الشّيطان لهم من التّفكير**، {لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} يريد أن يشير إلى أنّ هناك في النّاس قوم ضالّين وهو لا يريد أن يكزن منهم، فكأنّه يقول: وأنتم اطلبوا لأنفسكم ما تريدون أن تكونوا عليه؟ تريدون أن تكونوا من القوم الضّالّين؟ أم تريدون أن تكونوا من القوم المهتدين؟

الآن غاب القمر وأتى وقت الشّمس {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً} بعد أن أفل القمر {قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ} ليشير أنّ الرّبّ لابدّ أن يكون عظيماً، وهذه الشّمس بالنّسبة لسابقيها عظيمة، لكن هل يا تُرى سينتفي عنها هذه الصّفة الخطيرة؟

الّتي بسببها لا تصلح الكواكب للألوهيّة بل لا يصلح شيء للألوهيّة إلاّ ربّ العالمين {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} الّذي لا يغيب عن خلقه بل {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ}.

{فَلَمَّا أَفَلَتْ} إذًا هذه ما هي صفتها؟ {قَالَ يَا قَوْمِ} وهنا انتهت المحاجّة ولا تحاولوا أن تقنعوني، فكلّ هذه الكواكب لا تصلح أن تكون إله لي، فإنّ حاجتي للإله دائمة في كلّ وقتي، فكيف أتصوّر أنّ إلهي يغيب عنّي؟ بل لابدّ أن يكون قريبًا، مجيبًا، محيطًا، ومادامت انتفت الألوهيّة عن أعظم الكواكب فإنّ انتفاءها عن غيرها أولى.

فهو من فِطنته، ومن تعليم الله، ابتدأ بالكوكب ليتدرّج معهم طول المناقشة، فإنّه لو ابتدأ بالأكبر وهو الشّمس، كانت انتهت المناقشة في نقاش واحد _ لكن والله أعلم _ أُرِيدَ إظهار هذه المقامات الثّلاثة:

١. المقام الأوّل: مقام الفطرة:

فإنّ الاستدلال على **التّوحيد** مبناه الأساسي **الفطرة** الّذي هو **عقل الإدراك**، فإنّها في هذه الفطرة مسلّمات، ومستحسنات، ومستقبحات، لا يمكن أن يختلف عليها النّاس.

٢. المقام الثّاني: استعمال العقل الفطريّ في تحليل المسائل:

ثمّ أتى بعدها الوسيلة المهمّة، يعني: يكون الإنسان محافِظا على فطرته، فيستعمل عقله في تحليل المسائل، ويرى كيف يقبل الأمور، فلابدّ أن يقبلها مُعتمدًا على ما أوتي من **عقل فطريّ**.

٣. المقام الثّالث: استعمال الاستهداء:

ثمّ يستعمل الاستهداء، فإنّ الله يهدي من كان صادقًا، مُريدًا للحقّ، فإذَا تبيّن الحقّ لابدّ من البراءة من الباطل، {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} إذًا هم يُشركون، وهذا يدلّ على أنّ قومه في أصل عقيدتهم كانوا يعترفون بالله، ويشركون معه في الألوهيّة على الطّريقة الّتي تناقشنا فيها؛ وهذا يُشبه حال إشراك العرب، وهذا يُبيّن لنا سبب إيراد القصّة في هذه السّورة، فالسّورة فيها من الأدلّة القائمة على استحقاق الله للتّوحيد ما فيها، ومنها هذه القصّة.

فكان مناسبًا قَصّها على العرب لسببين:

- **السّبب الأوّل:** اهتمامهم بشأن إبراهيم ونسبة أنفسهم إليه.
- **السّبب الثّاني:** كونها واضحة في تعليمهم الطّريق للوصول إلى رضا ربّ العالمين.

فأنت:

تملك في أصل نفسك فطرة سويّة ← واستهدِ ← واطلب الهداية حقّا = يرزقك الله إيّاها

فإذا عرفتها لا تُحابي، ولا تُجامل، ولا تفكّر في قومك، ولا تفكّر في عاداتهم، لا تفكّر في أيّ شيء من هذا، فإنّك إذَا عرفت الحقّ حقًّا، وكان واضح الأدلّة، وأراك الله إيّاها، وسرت فيها على طريق من سبقك من الأولياء، والصّالحين، والأنبياء، والمرسلين، فتبرّأ من طريقة أهل الشّرك، والزم طريقة أهل التّوحيد، وتبرّأ من طريقة أهل الضّلال، والزم طريقة أهل الهداية.

المهمّ أنّه قال لهم {إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا} ونلاحظ أنّه قال: {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ} يعني: كأنّه يقول: أعرضت عن الأصنام، وأفردت الله عزّ وجلّ، واستقبلت هذا بوجهي {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} فكأنّه يقول: ما هو السّبب الّذي من أجله ترك الكواكب؟ وترك عبادة غير الله، وترك كذا وكذا ممّا كان قومه عليه؟ لأنّ الصّحيح أن أوجّه وجهي للّذي فطرني وفطر هذه الكواكب، فكلّها مفطورة، وكلّها مخلوقة، وكلّها موجودة، فكيف يُراد منّي أن أعبد غير الّذي فطرها وخلقها؟

فغدًا تبرّأ من هذه المعبودات، وتبرّأ من القوم المشركين، فقال: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} يعني أكّد أنّه وجّه وجهه {لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} حنيفًا وتبرّأ من أن يكون من المشركين.

{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ} نأتي الآن إلى قومه الّذين مازالوا يحاجّونه بعد أن أعلن إبراهيم عليه السّلام معتقده، وبيّنه بالمحاجة، فقد أتوا يحاجّونه أيضًا ويريدونه أن يرجع عمّا هو عليه، يجادلوه ويريدون مغالبته بالحجّة في بيانه للتّوحيد ونفيه الشّركاء؛ وطبعًا لابدّ أن يأتوا بأدلّة فاسدة أو بحجّة التّقليد، إلى أن نصل إلى التّخويف، فكلّ هذه الطّرق الّتي يستعملونها ردّ عليها وقال: {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ} فكيف تجادلوني في توحيدي وقد هداني، والحُجَجُ تامّة الوضوح، وتهدّدونني {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} يعني: لا أخاف معبوداتكم، لأنها جمادات لا تضرّ ولا تنفع؛ وهذا معناه: أنّهم في المحاجّة خوّفوه من أن تصيبه معبوداتهم بمكروه، وهذه الطّريقة الدّائمة عندهم.

ثمّ بعد ذلك قال: {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} يعني: **يمكن الإنسان أن يُصاب بمكروه، لكن لأنّ الله عزّ وجلّ شاءه، وليس لأنّ الأصنام أرادته**، والحقيقة هذه **فتنة عظيمة!**، يجدر التّنبيه عليها:

لأنّه هناك وقائع على الأرض قد يحصل من المُوافقات ما يجعل النّاس _ والعياذ بالله _ يفتتنون؛ يعني وباختصار: ممكن أن يكون كفر بشرك قوم يعبدون قبرًا، ويتقرّبون إليه، وهو قد منّ الله عزّ وجلّ عليه بالتّوحيد، فكفرت به، ومرض أو خسر في تجارته، أو حصل عليه شأن من شؤون الدّنيا الّتي هي من الأقدار، فيأتونه يخوّفونه، يقولون له: (هذا لأنّك سَبَبْتَ شيخنا _ هذا المقبور _ وغضب عليك، ووقع عليك ما وقع بسببه) !! فمن أراد الله عزّ وجلّ هدايته **نجّاه** من مثل هذا الموقف، وإلاّ فإنّهم كثيرون من يفتنون؛ فمن أجل هذا، **من الضّروري معرفة هذا القيد.**

{وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} يعني: ربّما شاء ربّي شيئًا، فالّذي سيقع عليّ إنّما هو من مشيئة الله، وليس من مشيئة هذه الأصنام فهي لا تنفع ولا تضرّ، وإذَا وافقت بلاء الله، يعني: اعتدائي عليها وافق أنّ الله عزّ وجلّ يبتليني ببلاء، فهذا من الله.

فإذًا خوف إبراهيم من أيّ شيء؟ ممّا يشاءه الله، وليس ممّا يوقعه هذه المعبودات من دون الله، فكأنّه يقول: أنا لا أخاف إلاّ من الله {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} فلابدّ أن يكون علمه سبحانه وتعالى سببًا لإيقاع مثل هذه البلاءات، فهو سبحانه وتعالى العليم بأحوال الخلق، الحكيم في معاملتهم.

فكانوا يخوّفوه، وهو في غاية الطّمأنينة!! {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} فتعلمون أنّه وحده سبحانه وتعالى المستحقّ للعبوديّة، فيقول لهم: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} تريدون منّي أنا أن أخاف من العجزة الّذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرّا، ولا تخافون أنّكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطانًا؟! فيسألهم: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}

مكانة الموحّدين عند ربّ العالمين:

فتأتي الإجابة من ربّ العالمين: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} وهذه جملة عظيمة في كتاب الله، تدلّ على مكانة الموحّدين، وأنّ الّذين وحّدوا الله، ولم يقعوا في الشّرك أبدًا، **وعدهم ربّهم بالأمن والهداية:**

- ✓ **بالأمن:** من المخاوف والعذاب والشّقاء.
- ✓ **والهداية:** إلى الصّراط المستقيم.

وهذا يكون لهم في الدّنيا والآخرة:

- ✓ في الآخرة يأمنون من العذاب ويهتدون إلى جنّات النّعيم.
- ✓ وفي الدّنيا يأمنون من الرّدّة، ويأمنون من الفتنة ويهتدون الصّراط المستقيم.

هذا إذا كانوا موحّدين ولم يخالطوا توحيدهم: لا بالشّرك، ولا بالذّنوب والمعاصي، والتّوبة باب مفتوح لكلّ من وقع في أيّ ذنب، **فمادام في العبد قوّة فعليه بباب التّوبة، يُغفر له ذنبه، ويُصلح له شأنه.**

أسأل الله عزّ وجلّ بمنّه وكرمه أن يجعلنا من الّذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأيّ شرك لا صغير ولا كبير، ولا بأيّ معصية لا كبيرة ولا صغيرة، وأن يموتوا على ذلك.

ومعنى هذا أن يكون العبد حذرًا من بقاء المعاصي عليه، بل يُكثر من التّوبة والاستغفار، والله غفور رحيم.

ما أعطينا في الحقيقة الآيات الأخيرة حقّها في النّقاش، لكنّها متداولة وكثيرة وخصوصًا من درس كتاب التّوحيد فقد مرّت معه هذه الآيات في الكلام عن فضل التّوحيد.

أسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا جميعًا نحن وأبناءنا وأحبابنا وأهل بيوتنا من الموحّدين، الّذين أخلصوا فَقُبِلَ منهم، اللّهمّ أعنّا على الصّيام والقيام، وعلى الاجتهاد في سلامة قلوبنا لربّ العالمين.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته